عنوان المداخلة: *سيميائية النص الروائي في الأدب الجزائري الحديث*

قراءة سيميائية لرواية الشهداء يعودون هذا الأسبوع لـ "طاهر وطار" أنموذجا –

أ/ بليصق عبد النور جامعة /محمد بوضياف المسيلة

توطئة:

إن الدارس للفن الروائي عموما يرى بأنه فن أدبي متكامل من كل الجوانب؛ أي النص في حد ذاته مع الخطاب الأدبي المشحون بالحوار، هذا بالإضافة إلى احتواء النص الروائي على المفتاح الأساسي لولوجه ألا وهو العنوان الذي يحمل في طياته الكثير من الإيحاءات التي يدل عليها بالنسبة للمتلقي أو القارئ لهذا النص ،كما يوظف نص الرواية الشخصيات التي تتمحور حولها الرواية، ولهذه الشخصيات حضور آني أو افتراضي في النص الروائي وعلاقاتها بتسمياتها وأماكن تحركاتها.

لهذا فإن النص الروائي يُغري بالدراسة السيميائية، بل يمكن القول بأن أنسب المداخل لفهم وتأويل النصوص الروائية هو المدخل السيميائي، وعليه من خلال مداخلتي هذه أردتها أن تكون حول النص الروائي الجزائري الحديث وما يحتويه هذا الأخير من عدد لا متناهي من العلامات السيميائية الدالة،كما سأسلط الضوء بالخصوص على سيمياية العنوان والشخصيات في رواية: الشهداء يعودون هذا الأسبوع لـ الطاهر وطار و ما تحتويه هذه الرواية من علامات سيميائية دالة.

إن النص الروائي " الشهداء يعودون هذا الأسبوع" يغري بالدراسة، بالنظر إلى الفكرة الصميمية و الجريئة المطروحة، لهذا فنص "الشهداء يعودون هذا الأسبوع" يفرض نفسه لأنه يستحضر أسماء كبيرة وفي مقدمتهم الراحل " الطاهر وطار" في نصه السردي القصصي ووصولا إلى الشهداء الأبرار. لهذا يُطرح السؤال التالي: لمذا اختار "الطاهر وطار" هذا العنوان:" الشهداء يعودون هذا الأسبوع" ليكون عنوانا لقصته، ولعل الإجابة تكمن في موضوع هذه القصة، فعودة الأموات إلى عالم الأحياء ليكونوا شهداء عليهم، موضوع طريف فيه الكثير من الإيحائية، ولا سيما إن كان هؤلاء العائدو هم الشهداء ليروا ماذا فعل رفاق الكفاح و النضال بعدهم؟ ويحكموا على ما آلت إليه أمور

البلاد التي سالت دماؤهم الزكية من أجلها أودية وأنهارا، ويروا إذا ما لم تذهب تضحياتهم سدى وهدرا، وإذا لم يقابل الناس تضحياتهم تنكرا وغدرا؟ [1].

إن العودة من العالم الآخر يثير المفارقة التي يمكن أن تنبني عليها المواقف في هذه القصة، وتعكس مواقف التنكر للشهداء، فكل من يتحدث إليه "**العابد**" – وهي الشخصية الرئيسية– في القرية عن عودتهم يطرح أمامه سلسلة من العراقيل و المتاعب كالوقوف في المحاكم و التوجه إلى الإدارة لإثبات حالة الحياة للعائدين وهو ما يتطلب وثائق وصبرا، مثلما يقول "**المانع**":

... تتقدم لهم ملفات يعمروها ... وإذا توفرت فيهم كل الشروط و المقاييس انتاع التضحية و الكفاح الدائم المستمر من أجل الصالح العام .... ذاك الوقت ما كانش مشكل ... مرحبا بهم.

العابد: الشهداء؟

المانع: واش تحب أكثر؟ الناس الكل سواسية أمام القانون يا العابد [2]، ويتأكد هذا كذلك في عدة مواقف يكفي أن نورد هنا مقطعا من الحوار بين منسق قسمة قدماء المجاهدين و العابد:

العابد: أتدري ما قال لي شيخ البلدية؟

–لا

على الشهداء إن بعثوا للحياة أن يكافحوا من أجل حذف أسمائهم من سجل الأموات، طوال حياتهم.

العابد: ابن خائن ماذا تريد أن يقول أكثر؟

وهل تدري ما قاله منسق القسمة؟

لا و الله.

يقدم لهم ملفات طلب الانخراط وبعد الدرس يقبلهم كمشتركين.

اسمع يا عمي العابد، قلبي ممتلئ حتى الفيض، لا تزد عليه، يقول المثل: حيثما شاء الحي وجه راس الميت، و الحي هو القانون، هم الساهرون على تطبيقه... (3)

1 – سيميائية العنوان:

يعد العنوان «نظاما سيميائيا ذا أبعاد دلالية، وأخرى رمزية، تغري الباحث بتتبع دلالاته، ومحاولة فك شفرته الرامزة» (4).

والعنوان «يشكل حمولة دلالية، لكن قبل ذلك فهو علامة أو إشارة تواصلية له وجود فيزيائي/ مادي، وهو أول لقاء مادي محسوس يتم بين المرسل (النّاص) والمتلقي أو مستقبل النّص. ومن هنا يغدوا العنوان إشارة مختزلة ذات بعد إشاري سيميائي» (5)، فالعنوان إذن ذو حمولة دلالية وعلامات إيحائية شديدة التنوع والثراء مثله مثل النّص، بل هو «نص موازٍ، كما عند جيرار جينيت. وإذا كان النّص نظاما دلاليا وليس معاني مبلغة، فإن العنوان كذلك نظام دلالي رامز له بنيته السطحية ومستواه العميق مثله مثل النص تماما» (6).

وقد رأى "بارت" (**r.barthes**) أن العناوين عبارة عن أنظمة دلالية سيميولوجية تحمل في طيّاتها قيما أخلاقية واجتماعية وأيديولوجية، ودعم رؤيته للسيميولوجيا على أشياء كثيرة حيث يقول: «يبدو اللباس، السيارة، الطبق المهيأ، الإيماءة، الفيلم، الموسيقى، الصورة الإشهارية، الأثاث عنوان الجريدة... أشياء متنافرة جدا. ما الذي يمكن أن يجمع بينها؟ إنه على الأقل: كونها جميعا أدلة... هذه السيارة تطلعني على الوضع الاجتماعي لصاحبها، وهذا اللباس يطلعني بدقة على مقدار امتثالية الإنسان أو شذوذه... وكلها قراءات على قدر كبير من الأهمية في حياتنا، إنها تتضمن قيما مجتمعية أخلاقية، أيديولوجية كثيرة، لابد للإحاطة بها من تفكير منظم، هذا التفكير هو ما ندعوه هنا على الأقل، سيميولوجيا» (7)، إذا يرتبط العنوان أشد الارتباط بالنص الذي يعنونه فهو نص مكثف،

يتعامل مع نص كبير يعكس كل أغواره، وأبعاده، فهو فكرة عامة تجمع الأفكار الأساسية في النص [8].

وعليه يعد العنوان« بمثابة الرأس للجسد، والأساس الذي تبنى عليه، غير إنه إما أن يكون طويلا فيساعده على توضيح المضمون الذي يتلوه، وإما أن يكون قصيرا، وحينئذٍ فإنه لابد من قرائن فوق لغوية توحي بما يتبعه » [9]، ومنه نقول بأن العنوان هو الموجه الرئيسي للنص، والعنوان من خلال طبيعته المرجعية و الإحالية يتضمن غالبا أبعاد تناصية، فهو دال إشاري يوحي إلى قصدية الباث وأهدافه الأيديولوجية والفنية.

كما يعتبر العنوان مدخل جيد لقراءة النص وعتبة موجهة لفهمه وتلقيه، وعنوان رواية "الشهداء يعودون هذا الأسبوع" ينبني لغويا ودلاليا على النحو الأتي:

اسم – فعل – اسم إشارة – اسم ، فالملاحظ أن العنوان عبارة عن جملة اسمية، تتكون من مسند ومسند إليه، من خلال مبتدأ وخبر الذي هو جملة فعلية، كما أن الاسم يهيمن على الجملة ومن خصائص الاسم الثبات و اليقين.

فبالرغم من أن أسلوب الجملة خبري، وهو يحتمل لذلك الصدق و الكذب كما يقول البلاغيون، بحيث يتبادر الشك إلى هذه العودة (فالأموات لا يعودون) إلا أن المسألة بالنسبة للشخصية الأساسية "العابد" أمر مؤكد ويقين وراسخ، وهو ما يظل يردده بقناعة تامة لا يخامرها شك ولا يتسرب إليها ريب، وهذا يتجلى أيضا على مستوى دلالة الفعل (يعودون) المرفوع بثبوت النون كما يقول النحاة.

وصيغة العنوان تحقق على الأقل وظيفتين هامتين من وظائف العنونة حسب "جيرار جينيت" G.genette [10]:

أ/الوظيفة الإيحائية fonction connotative:

فالعنوان يوحي بأشياء تنتمي إلى منظومة عقدية وثقافية معروفة ومنسجمة مع المتلقي، فالشهيد له دلالته الدينية الإسلامية، فهو رمز التضحية و القدسية و الرضا الرباني فمآله الجنة السماوية لا المكوث في الأرض أو العودة إليها كما يوحي العنوان بتحققها على غير المألوف، وهو ما يثير الوظيفة الثانية وهي الوظيفة الإغرائية.

كما أن لفظة العنوان الأساسية – الشهداء- تأخذ معنى آخر، وهو أقرب إلى المشاهدة و الملاحظة و المراقبة و المحاسبة لا الشهادة بمعنى الخلود في النعيم الأخروي، بالرغم من الإلحاح النصي و السردي على المعنى الثاني من خلال التناص مع الآية الكريمة " **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون**" [11]، فمعنى الشهادة في النص أقرب إلى معنى الآية الكريمة:" ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس" [12].

ب/الوظيفة الإغرائية **fonctionséductive**:

إن العنوان الجيد هو الذي يحسن الدعاية للعمل ويمكن من تسويقه تسويقا نافذا بناء على الإغراء والإثارة والتشويق. فالغموض والتغريب والانزياح كلها وسائل للفت الانتباه وتحقيق الجذب المطلوب والمنوط بالعنوان.

وعنوان النص – الشهداء يعودون هذا الأسبوع – مغر ومثير للأسئلة، كما يشتت الفهم لدى المتلقي دون أن يصرفه عن متابعة الموضوع، ودون أن يكون عنوانا طاردا، ولذا يحقق أيضا ما اشترطه "ايمبرتوأيكو" في العنوان، أي عدم الإفصاح عن المحتوى وتشويش الرؤية لدى المتلقي، قصد صدم توقعاته وبالتالي جذب انتباهه ومتابعته للنص.

وبناء على هذا حينما نتحدث عن عودة الشهداء تتولد الاستفهامات التالية: هل هذه العودة ممكنة؟ هل عاد الشهداء من قبل حتى يعود شهداء الجزائر؟ وإذا عادوا مذا يفعلون؟ ثم ما دلالة لفظة العودة(يعودون) ولماذا لم يستعمل لفظة (ينزلون) مثلا، فالنزول يبقى على المعنى السامي المرتبط

بالشهداء الذين يأتون من مكان عال وسام يهبطون منه مثلما هبط سيدنا أدم من الجنة إلى الأرض، إن العودة تشي بمعنى الرجوع للإقامة مع الذين لم يحافظوا على مكاسب الثورة، ولم يقدروا تضحيات رفاق السلاح.

إن عودة الشهداء تتضمن إذن معنى البقاء من أجل حراسة منجزات هذه الثورة، ولذا نجد الكل يخشى منها، ويخاف فضح الكثير من المستور كما هو الشأن لقدور المدعي الإقدام و الشجاعة، بينما وشي بمصطفى وكان الجنود الفرنسيون يتربصون به في بيته بالريف خلال الثورة.

2 – سيميائية الشخصيات: (الشخصية: العلامة المتصدرة في الرواية/ القصة)

إن المرتكز في نص "الطاهر وطار" هو الشخصية الأساسية (**العابد**) الذي جاءته رسالة من الخارج من ابنه الشهيد مصطفى يخبره أنه عائد شأن كل شهداء القرية، مما يجعل العابد يستوقف كل شخص يصادفه ويسأله عن موقفه من عودة الشهداء إلى القرية؟

وعمي "**العابد شيخ كبير في القرية ... قرية في جبال ألهيه**" [13]، وهذه العلامة اللغوية (شيخ كبير) توحي بالجلال و الوقار وعلو المكانة، فأهل القرية يجمعون على أن العابد رجل رزين "يوزن كلامه"، حتى إذا ألقى الخبر الغريب عودة الشهداء كان له وقع واستدعى النظر، بالرغم من أن العديد من المنشغلين باستقبال الضيوف – كبار المسئولين القادمين من العاصمة– رموه بالجنون ثم اتهموه بافتعال البلبلة و التشويش و الاتصال بالخارج و المشاركة في تنظيم يسعى لزعزعة الاستقرار في القرية.

ومن خلال تيمة (زعزعة الاستقرار) تظهر المفارقة، فظهر أهل القرية في حالة انتظار: المسئولين المحليون ينتظرون عودة الشهداء، في حين يعتقد العابد أن المسئولين مثله ينتظرون الشهداء، وكان كل من يتحدث إليه العابد يعتقد أنه يعني بالوصول وصول وفد العاصمة لا وفد الشهداء:

- **العابد: صباح الخير ... راكم توجدولهم؟**

- **السبتي: الواجب ياعمي العابد... لازم نقوموبهم ونرحبوبهم**
- **العابد: الله يفرحك كيما فرحتني ... تعرف أنت الأول اللي قلت نرحبوبهم.**
- **السبتي: علاه ماهمش خاوتي، وهما السابقين؟**
- **العابد: عندك الحق يالسبتي، سبقوا وفازوا...**
- **السبتي: الله يجعل يرضاو علينا هذا مكان** [14].

إن هذه المفارقة تنمي على عدم انسجام بين الفريقين بعد الثورة أي أثناء الاستقلال حيث طغت الأنانية على كثير من الناس وألهتهم المنافع العاجلة وأنستهم الروح الوطنية.

إن باقي الشخصيات تتماهى صفاتها وتتشابه، فتبدو شخصيات غير واضحة المعالم personnages flous، وتقف على علامات دالة غير قابلة للتحول، فهي تتفق في الرمز إلى الانتهازية وحب المصلحة و السعي لتحقيق الأغراض الشخصية، ولذا فهي تظهر صراعاتها وخلافاتها من خلال إصدار الأوامر المتضاربة لعامل البلدية البسيط، حتى لا يدري بأمر من يأتمر، وتتفق كمجموعة في توجيه الاتهام للعابد، الذي بات يهدد مصالح الجميع.

ربما الشخصية الوحيدة الواضحة المواقف والمحددة المعالم هي شخصية "علي"، المنتمي إلى التيار الاشتراكي، والذي يلقب بالكومنيست أي شيوعي، بالرغم من أن علي لم يشاطر العابد الرأي في مسألة العودة وهو ما أغضبه، لكنه على الأقل ظل يحن إلى زمن الثورة و ينتقد ما آل إليه وضع رفاق السلاح:

- **علي: يا عمي العابد ما تحرجنيش ، أنت تعرف... راك عشت الحقيقة من بداية الثورة حتى اليوم... وين التضحية؟ وين الإخلاص؟ وين الحماس؟ وين الأخوة؟ وين تزيد الجميع للصالح العام؟ البارح الشعب هو الثورة... اليوم كاين الحاجة اسمها البيروقراطية يا عمي العابد... وهي الرابحة في الأخير يا عمي العابد... وين بغى الحي يدور راس الميت يا عمي العابد (15).**

3 – دلالة الأسماء:

تحمل الشخصية الخطاب وتوجهه، ولذا تبقى بأفعالها وصفاتها ماثلة في ذهن لمتلقي بعد انتهاء فعل قراءة النص، وتتدخل وظيفة التعيين désignation، من خلال التسمية أو الوظيفة التي تقوم بها الشخصيات [16]، ويركز النص على وسم الشخصية الأساسية (العابد) فهو موسوم بالشاوي(حينما يتساءل عمن يرسل له رسالة من الخارج) حينما يقول العابد:

"توجه لي أنا العابد بن مسعود الشاوي الذي لم تربطه بالخارج صلة خلال الستين عاما التي عاشها" [17].

فالتسمية (العابد) بصيغة (الصفة المشبهة باسم الفاعل) تدل على الثبات ودوام الاتصاف، فهو منعوت بالعبادة متصف أيضا بالانتماء إلى منطقة الشاوية، الأوراس بالشرق الجزائري المعروف بالإسهام الثوري القوي إبان الثورة التحريرية، وهو أيضا انتماء الكاتب الطاهر وطار.

وتعكس أسماء الشخصيات – عند وطار– صفات تتصف بها الشخصيات، لتغدو الأسماء مدلولات كاشفة، "**فالعابد و الطاهر و الصالح و البشير**"، شخصيات لم تنقلب على مبادئ الثورة، ولم تلهث وراء المصالح، وبقيت متمسكة بالمبادئ ولم تتحول عن طهر وصلاح ونقاء الثورة.

أما شخصيات: "**المانع وقدور، والسبتي**" فتحمل من الصفات السلبية الشيء الكثير، والذي يهمها المصلحة الشخصية حتى وإن استدعى الأمر الانقلاب على المبادئ النظيفة للثورة، هذا بالرغم من أن الاسم أحيانا وعاء يمكن أن يملأ بالمعنى أو نقيضه، فالمانع للخير يمكن يكون مانعا للشر و الخيانة ويقف سدا منيعا للحفاظ على المكتسبات.

كما يدل اسم مصطفى على الاختيار و الاصطفاء، اختياره ليكون شهيدا وهو أعلى المراتب عند الله تعالى، ورمز القداسة، لهذا نقول بأن الطاهر وطار يختار شخصياته بعناية بالغة كما يدل أدبه الروائي على ذلك.

خلاصة:

وفي الأخير نقول أن النص الروائي يغري بالدراسة السيميائية، لما يحتويه هذا الأخير من علامات سيميائية دالة بدءا بالعنوان والشخصيات وعلاقة هذه الشخصيات بأماكن تحركاتها، وكذلك في التوظيف الدلالي لهذه الشخصيات داخل الرواية وعلقتها بمجريات الأحداث التي بمقتضاها تتحول هذه الأحداث وفق تدرج زمني ومنطقي لمجرى الصراع القائم في الرواية إلى درجة المفارقة و التي حدثت في رواية الشهداء يعودن هذا الأسبوع وهو ذهاب العابد لسكة الحديد لانتظار الشهداء في حين ذهب أهل القرية لانتظار المسئولين القادمين من العاصمة، وفي نهاية المطاف يدهس القطار العابد فيموت، وهذه في الحقيقة هي موت للإنسان السوي الذي يريد أن يعيش حياة كريمة خالية من كل كذب ونفاق.

الإحالات و المراجع:

1 النقد المسرحي المعاصر (الإشكاليات و الممارسات و التحديات)، محافظة المهرجان الوطني للمسرح، الجزائر، 2011، ص: 161.

2 الطاهر وطار: الشهداء يعودون هذا الأسبوع، مخطوط، ص: 21.

3 المصدر نفسه، ص: 166.

4 بسام قطوس: سيمياء العنوان، ط1، عمان، الأردن، 2011،ص: 33.

5 المرجع نفسه،ص: 36.

6 المرجع نفسه، ص: 37.

7 المرجع نفسه، ص: 37.

8 ضياء غني لفته وعواد كاظم لفته: سردية النص الأدبي، ط1، دار الحامد، عمان، الأردن، 2011، ص: 110.

9 المرجع نفسه، ص: 110.

10 النقد المسرحي المعاصر (الإشكاليات و الممارسات و التحديات)، ص: 165.

11 سورة آل عمران، الآية:169.

12 سورة الحج، الآية :78.

13 الطاهر وطار: الشهداء يعودون هذا الأسبوع، ص: 02.

14 المصدر نفسه، ص: 26.

15 المصدر نفسه، ص: 30.

16 النقد المسرحي المعاصر (الإشكاليات و الممارسات و التحديات)، ص: 171.

17 المصدر السابق، ص: 166.